

حكاية زهرة الجاعونية

د . عادل مناع*

رحلت جدتي زهرة عن هذه الدنيا عن عمر ينوف على السبعين عاما يوم السادس من آذار عام ١٩٦٨ . أما تاريخ ميلادها فغير معروف مثل غالبية أهل ذلك الزمان، لكنه قريب جدا من نهاية القرن التاسع عشر، قد يكون عام ١٨٩٧ . وحتى تاريخ زواجها من جدي سليم الحاج كرم فغير معروف على وجه الدقة لأنه غير محفوظ في أي سجل لمحكمة شرعية أو وثيقة عائلية (١) . وما عرفته من الروايات الشفوية التي سمعتها من والدي وعماتي هو أن زهرة السيد انتقلت من بيت أهلها في الجاعونة الى بيت زوجها، أي جدي سليم في مجد الكروم أثناء الحرب العالمية الأولى فصارت تعرف بين أهالي قريتنا بالجاعونية . كانت الجاعونية حين زواجها من جدي صبية لم تكمل العقد الثاني من عمرها كما يبدو . لكنها وفي تلك السن المبكرة من شبابها كانت قد خاضت تجربة الزواج أول مرة في بداية الحرب العالمية الأولى وترملت بعد ذلك بفترة قصيرة وهي لم تكمل الثامنة عشرة من عمرها (٢) . أما جدي سليم فكان حين زواجه من جدتي زهرة رجلا ناضجا في أواخر الأربعينيات من العمر، تزوج قبلها مرتين ورزق بولد وحيد يكبرها سنا اسمه فياض . وتفصيل حكاية هذا الزواج مثيرة تضيء جوانب هامة من بنية المجتمع القروي وتاريخ الزواج الريفي في ذلك العهد .

لم تتعلم جدتي القراءة والكتابة لأن الجاعونة مثل غالبية قرى فلسطين لم تكن قد فتحت مدارس للبنين في ذلك العهد، فما بالك بالبنات . لكنها ولمجاورتها بعض العائلات اليهودية في « الجاعونة – روش بينا » تعلمت بعض العبرية التي أعانتها لاحقا في حياتها بعد النكبة، حين أصبحت مواطنة في دولة اسرائيل (٣) . فجدي سليم توفي قبل أن يبلغ الستين، بعد أن أنجبت له زهرة الجاعونية ثلاثة أولاد وقع عليها عبء إعالتهم بعد وفاة زوجها . هكذا وجدت زهرة الجاعونية نفسها بعد حوالي عشر سنين من زواجها الثاني أرملة مرة ثانية، بعيدا عن أهلها ومسقط رأسها هذه المرة . ثم تزوجت زهرة الجاعونية بعد عامين أو ثلاثة من وفاة جدي من أحد أقاربه « أبو معيوف » لتحمي نفسها من الإشاعات والتعدييات . لكن حياة جدتي في « بيتها » الجديد لم تكن سهلة ولا مريحة . فقد أنجبت لزوجها الثالث أربعة أولاد أضيفوا الى أولاد « أبو معيوف » من زوجته الأولى . أما أولادها من جدي سليم فاضطرت رغم صغر سنهم أن تتركهم في بيت والدهم المتوفي لينشأوا دون أم ترعاهم . وكان والدي حسين أصغرهم سنا فسمعت منه الكثير عن تجربة حياته يتيما تحت كنف أخيه الذي يكبره بست سنوات (٤) .

* مؤرخ متخصص في تاريخ فلسطين خلال العصر العثماني ومدير مركز المجتمع العربي في معهد فان لير – القدس .

لقد تعرفت على جدتي عن قرب بعد أن كانت قد تجاوزت الخامسة والخمسين وبعد أن كان الإسرائيليون قد أعدموا زوجها «أبو معيوف» رميا بالرصاص في ٦/١١/١٩٤٨ وهدموا داره بسبب تعاونه مع «جيش الإنقاذ» (٥). ورغم تقدم سنها في أواخر الخمسينيات فإن سمات الجمال في وجهها وانتصاب قامتها الفارعة لم يفارقانها إلا في آخر أيامها. عاشت جدتي حينذاك في «خشتها» أو «براكيتها» بعيدا عن بيتنا القديم المجاور للجامع، فلم يتسن لي أن أسمع حكايات جدتي كما هي عادة الأطفال. وقد سمعت بعض قصة حياتها على مراحل وحلقات من والدي وعماتي قبل وفاتها والبعض الآخر بعد رحيلها عن هذه الدنيا. ثم وبعد نمو اهتمامي بالتاريخ بشكل عام وأحداث النكبة في قريتنا بشكل خاص صارت عمتي سعد، هي المصدر الشفوي الأهم لمعلوماتي عن جدتي وعن حياتها في مجد الكروم وقبل ذلك عن حياتها في مسقط رأسها الجاعونة (٦). وخلال إجراء مقابلاتي الشفوية مع عشرات كبار السن في قريتنا مجد الكروم، «اكتشفت» أن محمد حيدر «أبو جميل» يحتفظ بسجل لأهم أحداث القرية منذ أوائل عهد الانتداب البريطاني. هذا السجل المحفوظ يحوي معلومات عامة وأخرى خاصة عن حياة القرية وأهلها. ففي هذا السجل الذي خطه أبو جميل تاريخ بعض الولادات، ومعظم إن لم يكن كل الوفيات عقود الزواج «والطوشات» وغيرها من الأحداث. مثل هذا الأرشيف المحلي يندر وجوده في ريف فلسطين. وقد وجدت فيه معلومات هامة يصعب المبالغة في أهميتها عن جدتي كما عن بقية أهالي القرية فترة الإنتداب البريطاني (٧). هذه المعلومات المكتوبة في سجل «أبو جميل» تعطي توثيقا لبعض الروايات الشفوية وتدعمها بالتواريخ والأرقام والأسماء الدقيقة. هكذا تلتقي مشاهداتي وذكريات الشخصية عن جدتي مع الرواية الشفوية التي تدعمها المعلومات أو الوثائق المخطوطة في سجل «أبو جميل» لترسم معا سيرة أو صورة عامة عن حياة جدتي تعرض هذه الورقة بعض لقطات هامة منها.

هذه الورقة اذا تخطت حلقات من حياة امرأة عادية يندر أن تدخل كتب التراجم أو حكايات التاريخ التي تتمحور عادة حول النخب والقيادات. وحكاية جدتي فيها ما يكفي من المواد والأحداث لرواية أدبية يندر وجودها في الأدب العربي الحديث. لكنها أيضا تضيء جوانب ما زالت في الظل من التاريخ الاجتماعي لغالبية سكان فلسطين من الفلاحين وغيرهم من الفئات الشعبية. كما أن المصادر التي تعتمد عليها حكاية جدتي مميزة في خاصيتها وتمفصلها وإكمال بعضها البعض. فالسجل الذي خطه «أبو جميل» يشكل إضافة نوعية للرواية الشفوية يوثقها ويؤطرها ويكمل بعض تفاصيلها الدقيقة. حكاية جدتي التي توردها هذه الورقة تفتح اذا نافذة جديدة على تاريخ فلسطين الاجتماعي خاصة فترة ما قبل النكبة نرجو أن يفتح آخرون أمثالها للتعرف بشكل أعمق وأشمل على حياة المجتمع الفلسطيني التي لم تصورها كاميرا ولم يوثقها مؤرخ ولا أرسيف. هذه الورقة إذا هي نموذج لتاريخ يكتب من القاعدة الشعبية وهي أيضا تاريخ محلي دقيق المعالم (Micro history) يعكس التاريخ الشامل العام الذي تزخر به المكتبة العربية.

أول الطريق

تعرف جدي سليم الحاج كَرِيم «أبو فياض» على والد جدتي زهرة السيد في قرية الجاعونة خلال زيارته لدمشق وحووران في مطلع القرن العشرين. وقد وجد «أبو فياض» في ذلك البيت القروي المتواضع مكانا يأوي إليه ليرتاح من عناء السفر ومشقة الطريق الجبلية قبل أن يتابع رحلته على حصانه معظم الأحيان. وتوثقت المعرفة والصداقة بين الرجلين مع تتابع الرحلات وتوالي السنين حتى كانت الحرب العالمية الأولى المعروفة بويلاتها والتي يذكر كبار السن منها «السفر برلك» أي تجنيد العثمانيين للشباب وسوقهم الى جبهة القتال بعيدا عن بلدهم ووطنهم (٨). وقد جند رجال الدولة فياض، الذي كان في مطلع العشرينيات من عمره رغم أنه ولد وحيد لأهله ورغم كونه متزوجا ورزق بطفل صغير عشية نشوب تلك الحرب الكبرى.

وبعد أشهر قليلة من تجنيده وسوقه مع غيره الى دمشق الشام، هرب «فياض» من هناك ووجد ملجأ في دار صديق والده بالجاعونة. وكان لوالد جدتي مخزن قريب من دار العائلة مليء بالخبز والتبن فاخْتِياً فياض به عدة أشهر غير قليلة حتى يأس رجال الدولة من التفتيش عليه. وخلال تلك الأشهر مرض فياض مدة كانت ستي زهرة واختها سعدة تتناوبان إحضار الطعام والشراب خلالها. كما أن الصبيتان ساهمتا خلال المرض في مساعدة أمهما في إسعاف المريض والتخفيف من حمى المرض. تلك الأشهر التي وجد فيها فياض ملجأ في دار صديق والده لم ينساها بعد عودته لبيته وعائلته في مجد الكروم. ولم ينس فياض بشكل خاص سعدة وزهرة، صبيتان في مطلع شبابهما وجمالهما، لا يقل عمر كل واحدة منهما عن عمره إلا ببضع سنوات.

وبعد استقرار فياض بين أهله مدة من الزمن لا تتعدى نصف أشهر السنة طلب من والده أن يقوم بطلب يد سعدة من والدها ليتزوجها. لم يكن هذا الطلب عاديا في تلك الأيام. فالحرب الكبرى لم تنته بعد وقد عانى الأهالي خلالها من ندرة الموارد الغذائية ومن الجراد والأمراض وغيرها من ويلات الحرب. كما أن فياض كان متزوجا وله طفل من زوجته التي تماثلته في السن فلماذا «يتزوج عليها». ثم ماذا سيقول أهل زوجته وأهل القرية، خاصة في تلك الأيام التي كثرت فيها المآسي والأحزان. لكن فياض كان قد أحب سعدة فظل يلح على والده حتى أقنعه أن يزورا معا بيت والد جدتي بالجاعونة ويتقدما بطلب القربى.

إستقبل أهل جدتي زهرة ضيفيهما بكثير من الترحاب والثناء على كرم «أبو فياض» الذي حمل معه الكثير من الهدايا عرفانا بالجميل (٩). وفي السهرة بعد تناول العشاء فوجئ المضيف بطلب ضيفه يد ابنته سعدة لفياض وقال لصديقه: سعدة مخطوبة لمختار القرية منذ مدة. وابنك فياض متزوج وعنده أولاد فلماذا لا يتزوج زهرة، وهي أرملة بدون أولاد لا تكبر أختها إلا بعامين؟ لكن فياض كان قد أحب سعدة ولم يقتنع بقبول الزواج من زهرة الأرملة رغم جمالها وشبابها. ثم فاجأ جدي سليم الحاج كريم مضيفه مرة أخرى خلال السهرة طالبا يد زهرة لنفسه فتم الاتفاق ورجع «أبو فياض» في اليوم التالي مع زوجة شابة تصغر عمر ابنه البكر والوحيد الذي ظل على قيد الحياة من زوجته الأولى (١٠).

وسواء كانت تفاصيل الحكاية دقيقة أم لا فإن هذه الرواية سمعتها من والدي وعمتي عن ظروف انتقالها من بيت والدها الى بيتها الجديد في مجد الكروم. لقد صارت زهرة الجاعونية في تلك الأيام

من أواخر الحرب العالمية الأولى سيدة دار زوجها «أبو فياض» بدون منافسة ولا مشاكسة. فإحدى زوجات جدي سليم الحاج كريم كانت قد توفيت منذ أربع أو خمس سنوات. أما زوجته الأولى، جلييلة والتي ولدت له فياض وابنتين لم تتخطيا سن الطفولة قبل وفاتهما فكانت مثل زوجها في أواخر الأربعينات من العمر. وقد رأت فيها زهرة أما جديدة عوضتها قليلا عن بعد والديها وأنست «غربتها» في بيتها الجديد. أما جلييلة فبعد سنين طويلة لم تنجب فيها أطفالا فإنها شعرت بالسعادة التي ملأت البيت خاصة بعد أن بدأت زهرة تنجب أطفالا الواحد تلو الآخر.

صارت جلييلة في بيت «أبو فياض» بمثابة جدة أولاده من زهرة الجاعونية. وأما زهرة فعاملت «أم فياض» معاملة الأم ولم تشعرها بتاتا بأن «الضرة مرة». أما جدي فعاش تلك السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الكبرى في جنات النعيم بين زوجته وأولاده الصغار الذين بعثوا الأمل والسعادة والحياة الجديدة في جنبات الدار ذات الطابقيين. وتنقل الروايات العائلية صورة شبه مثالية عن تلك السنين التي لم تدخل فيها الغيرة والحسد دار «أبو فياض» فسارت الأمور على خير ما يرام. هكذا استقرت زهرة الجاعونية في بيتها الجديد وأقامت لنفسها عائلة جديدة في غير مسقط رأسها وفي زمان حمل نهاية الحكم العثماني على هذه البلاد وبدأ فيه حكم بريطانيا الذي استبشر الناس فيه أول الأمر خيرا للمنطقة وأهلها.

لكن السعادة والأفراح لم تدم طويلا في بيت زهرة الجاعونية. فقد مرض زوجها ووالد أطفالها حتى صار طريح الفراش مدة من الزمن. وكان الطب الحديث نادر الوجود في ريف فلسطين ومدنها الصغيرة فتداوى «أبو فياض» أولا بالأعشاب والوصفات الشعبية ظانا أنها كبوة وتزول. لكن المرض لازم جدي بل واشتد عليه حتى صار طريح الفراش لا يقوى على القيام بأبسط الأعمال. ومع ذلك حملت منه زهرة الجاعونية فأنجبت والدي بعد أن كانت قد أنجبت قبل ذلك بسنين كلا من علي وأمينة. واستبشر الجميع بالحمل ثم قدوم حسين الذي أدخل السعادة والفرحة على أهل البيت ومن حوله. لكن حالة «أبو فياض» الصعبة لم تتحسن وظل طريح الفراش مدة عام ونيف بعد ولادة طفله الأخير ثم فارق الحياة (١١).

ترملت زهرة الجاعونية ثانية وهي صبوية لم تكمل العقد الثالث من عمرها. وأرملة في مقتبل العمر مع ثلاثة أطفال أصغرهم لم يكمل السنين وأكبرهم لم يكمل الثامنة كانت بحاجة لسند يحميها من غوائل ذلك الزمان. ولم تكن المعيشة والمال مشكلة زهرة الأساسية. فقد ترك لها «أبو فياض» بيتا واسعا وأملاكا فيها كروم التين والزيتون توفر لها ولأولادها دخلا وفيرا. لكن المجتمع الريفي لم يكن معتادا على أرملة في مقتبل العمر ترعى شؤون بيتها بدون رجل يحميها. لذا وبعد مرور أقل من عام على رحيل «أبو فياض» جاء والديها من الجاعونة ليعيدا ابنتهم الى بيت أهلها. ولم يكن أهل جدتي ميسوري الحال بحيث يتحملوا إعالة ابنتهم الأرملة وأولادها الثلاثة. لكنهم مع ذلك جاءوا الى ديوان آل مناع ليقوموا بواجبهم أو على الأقل عرض مخاوفهم والتشاور في كيفية صيانة شرف ابنتهم. كانت زهرة على علم بحالة أهلها المادية. كما أنها فضلت بيتها الواسع المريح على الحياة في غرفة واحدة مع أولادها في مسقط رأسها بالجاعونة الى جانب والديها. وكان فياض الذي لم ينسى أبدا دور زهرة وأهلها في حمايته ورعايته حين كان «فراريا» مريضا في «تبان» بيتهم على علم بموقف أرملة والده. فتقدم مع غيره من كبار العائلة وشكر أهل جدتي وطمانهم أن ابنتهم

في أمان لن يمسه سوء في دارها وبين أهلها الجدد . واطمئن أهل الى موقف فياض وأقاربه فودعوا ابنتهم وأطفالها وعادوا الى الجاعونة بعد أن قاموا بالواجب تجاه ابنتهم وأنسبائهم .

ما بين الخاص والعام

لكن القيام بالواجب لم يضع حدا لإشكالية حماية «أرملة» جميلة يشتهيها الكثير من ذئاب الرجال . فالقيل والقال والغمز واللمز صاروا من العوامل الضاغطة والمنغصة لحياة زهرة الجاعونية بلا زوج يحميها ويرد الأعين والألسنة عنها . وتفاقت المشكلة مع مرور الوقت ، خاصة بعد أن رفضت زهرة الجاعونية بعض العروض غير المغربية للزواج من رجال يكبرونها سنا مثل زوجها المرحوم «أبو فياض» . واعتبر الكثير من أهل القرية هذا العناد نشازا وتحديا من امرأة غريبة كان الأحرى بها أن تستظل بحماية أي زوج ولو كان عجوزا . لكن زهرة رفضت تلك الثقافة الذكورية التقليدية وأصرت على تدبر أمور بيتها بنفسها رغم علمها بمخاطر موقفها الذي يفتح باب القيل والقال وتناقل الإشاعات التي قد تمس بشرفها (١٢) .

كان بيتنا الذي عاشت فيه جدتي مع أولادها الثلاثة ملاصقا لجامع القرية وبيوت العديد من الجيران . وأذكر في طفولتي أنني وبعض أولاد الجيران كنا ننتقل من سطح بيت لآخر نلعب ونزور بعضنا البعض من على السطوح بدلا من نزول ساحة الدار الى الزقاق والطرق الضيقة بين بيوت القرية القديمة . هذه الظاهرة لبناء بيوت القرية المتلاصقة المتكاثفة شكلت في القرون الماضية سورا طبيعيا أمام تعديات الأعراب على الأهالي (١٣) . لكنها سمحت أيضا لبعض « زعران » القرية باستغلال السطوح لغير أغراضها الشرعية ، بما في ذلك الاعتداء على حرمة البيوت ومحاوله المس بحريمها . هذه الأمور لم تكن غائبة عن بال جدتي زهرة فاتخذت الاحتياطات اللازمة وأغلقت بعض المنافذ وحصنت بيتها ببعض الاستعدادات لرد التعديات .

كنت أسمع في طفولتي وشبابي عن جرأة جدتي زهرة وقوة شخصيتها التي تفسر صمودها أمام النوايب والتحديات الكثيرة التي واجهتها في حياتها . لكن الأرملة الشابة التي تعيش مع أولادها الثلاثة ، الذين لا يتعدى أكبرهم سن العاشرة أغرت بعض زعران القرية بمحاولة الاعتداء عليها . وفي إحدى الليالي سمعت جدتي نقرا خفيفا على باب غرفتها الخشبي . ولما سألت عن الطارق لم يعرف الرجل الواقف خلف مدخل غرفتها بنفسه بل طلب بصوت خافت أن تفتح له بابها . أما جدتي فما كان منها إلا أن حملت محمص القهوة الحديدي بيدها وفتحت الباب بيدها الأخرى . وقبل أن تهوي بمحمص القهوة الحديدي على رأس الرجل فر هذا من فوق السطوح واختفى في عتمة الليل . هكذا نجحت زهرة الجاعونية بالدفاع عن نفسها في تلك الليلة . لكن فياض وغيره من الأقارب أخذوا احتياطاتهم وقرروا عدم ترك أرملة سليم الحاج كريم وحيدة في دفاعها عن نفسها .

ولما كرر حسين خليل محاولة الاعتداء على حرمة دار زهرة الجاعونية وقع المعتدي في الكمين الذي نصب له بالتعاون مع اثنين من أفراد الشرطة وألقي القبض عليه في ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٩ وتم توقيفه في سجن عكا حتى موعد المحاكمة (١٤) . ثم جرت محاكمة حسين خليل

في عكا بتهمة الاعتداء على زهرة الجاعونية وبيتها وتمت إدانته فصدر عليه حكم بالسجن لسته أشهر فقط (١٥). اعتقد آل مناع أن ذلك الحكم كان أقل بكثير من المطلوب وقرروا ملاحقته بعد أن عاد حرا طليقا لداره وأهله عام ١٩٣٠. ولم يأبه حسين خليل بالتهديدات التي وصلت مسامعه ولم يقبل بضرورة جلائه عن القرية حسب العرف ولو الى حين. هذا الموقف اعتبر تحديا واستفزازا فتأججت العلاقات بين الحمولتين وحصلت مشادات ومنازعات كانت ذروتها قتل خليل والد حسين المعتدي على دار زهرة الجاعونية بتاريخ ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٣١ في أرض قالوس (١٦). وقد اتهم بالقتل أحمد الأمين بالتعاون مع توفيق الجابر ومحمد بشر وآخرين. وفي المحكمة تم تبرأة ساحة هؤلاء المتهمين وتبين أن آخرين قاموا بقتل خليل المذكور (١٧).

هذه الحادثة وأمثالها غدت نزاعات وصراعات امتدت أجيالا بين حمولة المعتدي على جدتي وبين آل مناع. وآزرت عائلات أخرى في القرية كل واحدة من طرفي النزاع بينما حاول آخرون التدخل للصلح ووقف الاقتتال. هذه الظاهرة من الانقسام الحائلي والاقتتال العائلي شكلت لمدة طويلة، بما في ذلك عهد الانتداب البريطاني عاملا أساسيا في ضعف تكاتف المجتمع الفلسطيني أمام الأخطار الخارجية. وقد قام بعض الباحثين بدراسة الصراع بين أبناء النخبة المقدسية من مجلسيين ومعارضة ومن والأهم. لكن عمق تلك الظاهرة الاجتماعية وأبعادها تتعدى ذلك الزمان وذلك المكان لتطال المجتمع الفلسطيني بأسره. أما آثارها الهدامة فبرزت في أيام حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وما بعدها. وهي على كل الأحوال موضوع هام وواسع فلما تطرق إليه الباحثون ولكنه طبعا يخرج كثيرا عن حدود هذه الورقة المتواضعة (١٨).

كيف تأثرت زهرة الجاعونية بما كان يجري من حولها؟ لقد عاد أهل جدتي من الجاعونة بعد سجن حسين خليل ليطلبوا مرة ثانية السماح بإعادتها اليهم. ومرة أخرى فضلت زهرة الجاعونية العيش في مجد الكروم على العودة للعيش في مسقط رأسها. لكنها هذه المرة وافقت على قبول محمد الحاج «أبو معيوف» زوجها لها لحمايتها وأولادها من المعتدين ومن السنة الناس. هكذا بدأت مرحلة جديدة في حياة جدتي وأولادها الثلاثة وأصغرهم والذي حسين عام ١٩٣٠. وقد عاشت زهرة الجاعونية مع زوجها الثالث والأخير ثمانية عشر عاما حتى عام النكبة. وولدت جدتي من زوجها الجديد أربعة أولاد هم سعدة وآمنة وسميح وأحمد فصارت أما لسبعة أولاد من زوجها اللذين تربطهما علاقة أبناء العمومة.

وبينما كانت حياة زهرة الجاعونية تسير نحو الاستقرار فإن مجد الكروم مثل غيرها من قرى ومدن فلسطين عاشت أياما صعبة منذ أواخر العشرينيات. فمن المعروف أن العلاقات بين اليهود والعرب في فلسطين توترت منذ أواخر عام ١٩٢٨ ووصلت أوجها في أحداث البراق وقتل العشرات من يهود الخليل في صيف عام ١٩٢٩. هذه الأحداث الدموية هزت أيضا علاقات الجوار الطيبة نسبيا بين العرب واليهود في صفد وطبريا وغيرها من البلدان. فبينما كانت زهرة الجاعونية تمر أياما صعبة في محنتها الخاصة المذكورة أعلاه تخوفت من عواقب وتبعات حوادث البراق الدموية على أهلها في الجاعونة الذين عاشوا الى جانب يهود روش بينة منذ إقامة تلك المستوطنة اليهودية عام ١٨٨٢.

أما الحوادث الأخرى التي عانى منها أهالي مجد الكروم مثل غيرهم في العديد من أنحاء فلسطين تلك المدة فكانت من فعل الطبيعة وهي أمور نادرا ما يجري التطرق إليها في التاريخ السياسي للبلاد. ففي ٢٣ شباط ١٩٢٨ سجل أبو جميل في دفتره أنه «صارت هزة الأرض يوم الخميس» حين

كان ساعتها في «أرضة الشيخ نيهان وبحضور حسن السباعي ومحمد النصراوي» (١٩). ويبدو أن الهزة نفسها لم تترك ضررا كبيرا مباشرا، لكنها زعزعت أسس وسطوح البيوت الريفية التي يعود تاريخ بناء غالبيتها الى أيام ظاهر العمر الزيداني (٢٠). ثم ظهرت أضرار الهزة لاحقا، وخاصة بعد عام تقريبا، في يناير/كانون ثاني ١٩٢٩ حين صار «تهبط المحلات زيادة على خمسين محل». وكان شتاء ذلك العام قويا حتى صار يضرب فيه المثل وتقارنه الأجيال اللاحقة بمواسم شتاء أخرى حين تملأ الأمطار والسيول «القرار والوديان» (٢١). ولم تكف أهالي القرية الهزة الأرضية وهدم البيوت في شتاء العام التالي فجاء الجراد إليها في ١٨ نيسان/أبريل ١٩٣٠. كانت تلك بعض حوادث ومصائب ذلك الزمان العامة التي عاشتها جدتي وسجلها أبو جميل في دفتره الذي لم يفصل بين الخاص والعام.

أما الأحداث الأعم التي عايشها أهل فلسطين تلك الفترة ووجدت لها أثرا في سجل أبو جميل فكثيرة أرد فيما يلي بعض الأمثلة منها مما يعكس تواصل حياة الريف مع المدينة وأخبارها بعكس ما يظنه البعض. ففي ١٣ نيسان ١٩٢٩ احتوى السجل خبر وفاة عبد الفتاح أفندي السعدي، عضو البرلمان العثماني أيام الحرب العالمية الأولى ورئيس بلدية عكا (٢٢). ثم في ٣٠ آب ١٩٢٩ جاء في سجل أبو جميل ذكر «الثورة بين اليهود والإسلام» إشارة الى أحداث البراق في القدس والخليل وغيرها من أنحاء فلسطين. وكان لأحداث البراق كما نعلم تداعيات كثيرة ارتبط بعضها بما قام به حكام البلاد مما أرخه أبو جميل مثل «إعدام محمد مجموع وعطا الزير وفؤاد حجازي في عكا يوم الثلاثاء الموافق ١٧ حزيران ١٩٣٠». وقد خصص سطرين أو ثلاثة لهذا الحدث الذي وقع قريبا من مجد الكروم وكتب على هامش السطرين أن الإعدام كان «بخصوص الثورة التي صارت بين اليهود والإسلام». وهناك في سجل أبو جميل إشارات كثيرة أخرى للأحداث العامة، خاصة أيام ثورة ١٩٣٦ نتوقف عن ذكرها كي نعود الى محور هذه الورقة حكاية جدتي (٢٣).

شرطت زهرة الجاعونية على «أبو معيوف» أن تبقى في دارها مع أولادها كي لا تعيش مع زوجته الأولى وأولادها في داره. ولم يكن هذا الشرط صعب القبول على أبو معيوف الذي قسم أيامه ولياليه ما بين الدارين والزوجتين منذ عام ١٩٣٠. وارتاح الأهل والأقارب في الجاعونة ومجد الكروم لهذا التدبير. وكان الأهم أن زهرة الجاعونية لم تعد أرملة بدون ظهر اعتقد البعض أنها فريسة سهلة يمكن الانقضاض عليها في عتمة الليالي. ولما كانت جدتي حينذاك في أوائل الثلاثينيات فإنها حملت من أبو معيوف بسرعة وأنجبت منه أربعة أولاد الواحد تلو الآخر. لكن أبو معيوف الذي كان يقضي معظم أيامه ولياليه في بيت زهرة الجاعونية صار يتبرم من «عفاريتها» أي أولادها من سليم الحاج كريم. وكان أصغر هؤلاء حسين والدي (الذي تخطى حين زواج أمه السابعة من العمر) الأكثر إزعاجا لراحة أبو معيوف. وقد سمعت أكثر من مرة ومن أكثر من مصدر رواية الحادثة التي قصمت ظهر استقرار حياة زهرة الجاعونية مع أبو معيوف في دارنا/بيتها وأدت الى انتقالها لدار أبو معيوف.

كان موسم الزيتون جيدا ذلك العام والكل مشغول بتخزين الزيت والزيتون في الجرار والخبوابي وتخزين الجفت لنار المواقد والطابون وغير ذلك. ولما كان العمل كثيرا والأولاد يشغلون أنفسهم بالنط والصراخ فإن أبو معيوف «ضاق خلقه» وفقد أعصابه. وكان حسين يلعب مع أخوته فوق على الأرض في طشت مملوء بالزيت. فما كان من أبو معيوف إلا أن أمسك بالولد من يديه ورجليه

ورفعه الى ما فوق رأسه صائحا «أموتك وأخلص منك». إرتعش قلب الأم فصاحت جدتي بحضور الأقارب والجيران «يا غلبي الدار دارهم والزيت زيتهم وبدك تموت الولد». وعاد أبو معيوف الى رشده بسرعة فأنزل الولد الى الأرض. لكن حسين وإخوته ومن كان حولهم من البالغين لم ينسوا تلك الحادثة أبداً وسمعتها منهم عدة مرات على مر السنين والأعوام.

وفي أعقاب «حادثة الزيت» قرر أبو معيوف أن تنتقل زهرة الجاعونية الى داره تاركة أولادها من سليم الحاج كريم في دار والدهم المرحوم. ولما كانت أمينة قد صارت صبية في السادسة عشرة من العمر تقريبا وأخاها علي قد تخطى الرابعة عشرة فقد تسلمت المسؤولية عن نفسيهما وعن الدار وعن أخيهم حسين. أما جدتي فصارت «تطل» عليهم بين الفينة والأخرى خاصة وأن دار ابو معيوف قريبة من دار أولادها القريبة من جامع القرية. لكن بال جدتي ظل مشغولا بمصير أبنائها المراهقين. وبعد حين وجد الحل بزواج بدل لكل من أمينة وعلي فعاش حسين بعد ذلك في ظل رعاية أخيه البكر وزوجته منذ ١٢ تشرين ثاني ١٩٣٦ (٢٤). ويقال أن نشوب الثورة كان من العوامل التي عجلت بذلك الزواج لأن العريسين كانا من شباب القرية الذين تقربوا من الثوار فخاف عليهما الأهل من الموت أو السجن. وحكايات والدي وتجربته تلك السنوات بما فيها عمله في مصنع «نور» لأعواد الثقاب في عكا منذ نهاية الثلاثينيات سمعتها منه مرات عديدة تحتاج روايتها الى سياق آخر.

وانهمكت زهرة الجاعونية برعاية بيتها وأولادها في دار «أبو معيوف» وسارت شؤونها وشؤون أولادها من «أبو فياض» الى الاستقرار في دارهم بعد زواج علي وأمينة. ولم تعد جدتي في أعقاب الحرب العالمية الثانية شابة فقد تعدت الأربعين وانشغلت بهموم الناس العادية حين كانت هموم فلسطين وأهلها تسير صوب عاصفة ما قبل النكبة. في تلك السنوات حافظت جدتي على علاقاتها مع أهلها الذين زارتهم برفقة أبو معيوف في الأعياد والمناسبات. وقد تعرف أبو معيوف على جيران أهلها في الجاعونة ومنهم مانو فريدمان أخو جدتي في الرضاعة الذي صار تاجرا كبيرا وضابطا في منظمة الهاغاناه. ولما كان أبو معيوف أيضا تاجرا للحبوب والمواشي فإنه شارك مانو فريدمان في بعض تجارته منذ أواسط الأربعينيات وحتى عشية النكبة في فلسطين (٢٥).

نكبة فلسطين وتداعياتها

لم أسأل جدتي قبل وفاتها عن رأيها في حرب فلسطين ونتائجها لأن ذلك الموضوع لم يشغلني أنا في تلك السن، حتى في الأشهر القليلة التي تلت نكسة حزيران ١٩٦٧. ويمكن التكهن أن غالبية مشاغل زهرة الجاعونية ارتبطت بأخبار عائلتها وأولادها وأهل قريتها. فعلي إبنها البكر الذي تزوج منذ عام ١٩٣٦، كما مر معنا، كان بيته خاليا من الأطفال بعد مرور عشر سنين ونيف على زواجه. لقد حملت زوجته ثلاث مرات ولكنها كانت تجهض قبل مرور التسعة أشهر أو يموت الجنين بعد ولادته بمدة قصيرة. أما أمينة اخته والتي تزوجت مع علي في نفس اليوم زواج بدل فقد وضعت طفلين عاشا معها عدا حملين غير كاملين في نفس تلك المدة. ثم تزوج ابنها حسين، والدي في ١ نيسان ١٩٤٥ وعاش في نفس الدار مع أخيه علي (٢٦). وقد حملت أمي أيضا

وأجهضت وهي لم تكمل الثامنة عشرة من العمر فازداد تشاؤم الجميع واعتقدوا أن دار سليم الحاج كريم الملاصقة للجامع «مسكونة» مما يفسر كثرة وفيات الأجنة والأطفال بعد ولادتهم.

كانت زهرة الجاعونية ومن حولها مشغولين بمثل هذه الأمور العائلية عندما أصدرت الأمم المتحدة قرارا يقترح تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية في ٢٩ تشرين ثاني/نوفمبر ١٩٤٧. هذا الاقتراح بتقسيم البلاد جعل مسقط رأس جدتي، الجاعونة، في حصة الدولة اليهودية مع صفد والكثير من نواحي الجليل الشرقي. لا أعتقد أن أحدا سأل جدتي أو أهلها عن رأيهم في قرار التقسيم. وعلى كل الأحوال فقد رفضته القيادات الفلسطينية والعربية وهددت بالحرب والقتال. ثم بدأت المناوشات التي ذكرت الأهالي بحوادث الثورة في فلسطين قبل ذلك بعشر سنين (١٩٣٦ - ١٩٣٩). وكان سميح أحد أبناء جدتي من أبو معيوف في السادسة عشرة من العمر فقط حين بدأت المناوشات بين العرب واليهود في أعقاب قرار التقسيم. لكنه في تلك السن المبكرة قرر الانضمام الى الثوار منذ بداية عام ١٩٤٨. وبعثا حاولت جدتي ووالده أبو معيوف ثنيه عن هذا الاتجاه المغامر. وكان قلب الأم دليلها فلم تمض إلا بضعة أسابيع بعد ذلك حتى أتى من منطقة شعب القريبة خبر انفجار لغم في سميح ووفاته حين مرافقته للثوار في الجبال. هكذا فجعت جدتي زهرة بموت أحد أبنائها منذ بداية حرب فلسطين عام ١٩٤٨ (٢٧).

ثم اشتعلت نار الحرب بين العرب واليهود في فلسطين في أكثر من موقع وناحية. ووصلت وحدات من «جيش الإنقاذ» الى الجليل فرابطت إحداهما في مجد الكروم واتخذ أفرادها من دار أبو معيوف مخزنا للمؤن ومن حاكورته معسكرا لبعض أولئك المتطوعين. لقد أثار هذا الاختيار لدار أبو معيوف معقلا لوحدة جيش الإنقاذ أسئلة لم ألق عليها جوابا شافيا كافيا حتى الآن. هل كان هذا الاختيار بمثابة مكافأة «لأبو الشهيد» الذي فقد ابنه سميح مؤخرا، وهل كان تعاون أبو معيوف مع جيش الإنقاذ خيارا حرا أم قبولا مفروضا حسب التوقعات. هل يعقل أن يكون أبو معيوف «مجبور أخاك لا بطل» كما يقول المثل الشائع في مثل تلك الحالات. هل سأل أحد زهرة الجاعونية عن رأيها في جعل دارها مخزنا ومعقلا لوحدة من جيش الإنقاذ أم أن الزوجة ما عليها إلا قبول قرار زوجها والطاعة وعدم المراجعة في مثل هذه الأمور الخطيرة؟ ومهما كانت الإجابات على تلك الأسئلة فإن تعاون أبو معيوف مع جيش الإنقاذ كلفه حياته وخراب بيته وهو ثمن باهظ تحملت جدتي تبعاته ببقية حياتها. لقد دخلت وحدة من الجيش الإسرائيلي القرية من الجهة الغربية بعد اتفاق تسليم وخضوع يقوم بموجبه أهالي مجد الكروم بتسليم ما بأيديهم من سلاح. أما الجيش الإسرائيلي الذي رابطت بعض وحداته في قرية البروة فالتزم بالمقابل بعدم الانتقام من أهالي مجد الكروم وغض النظر عما قاموا به من مقاومة وتعاون مع وحدة جيش الإنقاذ. هذا الاتفاق التزم به وحدات الجيش الإسرائيلي التي دخلت القرية من الغرب واستلمت الأسلحة من أهالي القرية في ٣٠ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٤٨. وتذكر غالبية روايات تسليم القرية وخضوعها اسم حليم أورباخ من نهاري كواسطة لعقد ذلك الاتفاق وتنفيذه. وعلى كل الأحوال فإن الأيام الأولى لشهر تشرين ثاني (نوفمبر) مرت على خير وبقي غالبية أهالي القرية ولاجئها من القرى المجاورة في بيوتهم أو قريبا منها (٢٨).

كانت مجد الكروم إحدى قرى الشاغور الكبيرة أضيف الى سكانها الأصليين مئات اللاجئين النازحين عن قراهم القريبة مثل البروة وشعب والدامون وغيرها. وكانت الشائعات تصل مسامع أهالي

القرية عن المذابح في عيلبون وغيرها من القرى التي تم احتلالها مؤخرا في الجليل الأوسط والأعلى . لكن علاقات بعض أهالي القرية الطيبة مع «أبو زئيف»، حميم أورباخ المذكور أعلاه وجبر الداهش معدي وغيره من دروز يركا أدخلت بعض الطمأنينة الى قلوب الناس وجعلتهم يلازمون بيوتهم ولا ينزحوا عنها بعد انسحاب وحدة جيش الإنقاذ (٢٩٩ . عاشت جدتي مع غيرها تلك الأيام الصعبة من الانتظار بين مخاوف الأخبار التي تأتي من الشرق والأمال المتكئة على العلاقات القديمة مع بعض الشخصيات المذكورة من الغرب والتي ساهمت في عقد اتفاق التسليم المذكور أعلاه .

وقبل مرور أسبوع على خضوع القرية وتسليم أسلحتها وصلت وحدة عسكرية إسرائيلية أخرى من الشرق كان أفرادها قد قاموا بمذابح وأعمال قتل في كل من عيلبون ونحف ودير الأسد والبعنة وغيرها . هذه الوحدة العسكرية التي طوقت القرية قامت بمذبحة على ساحة العين، كان أول ضحاياها أبو معيوف الذي جعله العساكر يرى نسف داره بالديناميت قبل إطلاق الرصاص عليه أمام أهل البلد (٣٠) . ويحفظ أفراد العائلة رواية سمعتها عن جدتي التي كان « قلبها دليلها » قبل وقوع المصيبة . تقول الرواية إن جدتي التي خافت أعمال الانتقام من زوجها لتعاونه مع جيش الإنقاذ أرسلت الى «أخيها بالرضاعة» مانو فريدمان تطلب منه المساعدة والحماية لها ولعائلتها . ويقال أيضا إن مانو هذا أرسل بالفعل ورقة بخط يده بالعبرية الى زهرة الجاعونية تقول « الرجاء عدم المس بهذه السيدة الفاضلة وأولادها » . وقد فسرت الرواية إعدام أبو معيوف وهدم داره بدهاء نص تلك الورقة التي وقعها مانو فريدمان لأنها أشارت الى حماية جدتي وأولادها دون زوجها ودارها . فهل كان بيد جدتي ورقة من مانو قدمتها للجنود قبل إعدام زوجها وهدم دارها؟ هذا شيء غير مؤكد . لكن الأهم هو طبيعة تلك العلاقات بين أهل جدتي وعائلة فريدمان في الجاعونة-روش بينة حتى عام ١٩٤٨ والتي سمحت بنشوء تلك الرواية وتسويقها .

وقد ألمحت قصة تلك الورقة بالعبرية من مانو فريدمان لجدتي بصلوع هذا في إعدام «أبو معيوف» وخراب بيته رغم العيش والملح . فهل كان لمانو ضلع ولو بشكل غير مباشر في خراب بيت جدتي «أخته بالرضاع»؟ هذا سؤال حاولت أن أجده له جوابا شافيا فسمعت إجابات مختلفة يصعب الاعتماد عليها . لكنني سمعت أيضا تأكيدا أن مانو فريدمان حضر بنفسه لزيارة جدتي وتعزيتها بفقدان زوجها ودارها بعد سماعه بالخبر . ويقال أن جدتي عاتبته بعدم حفظ العيش والملح فأنكر بشكل قاطع أن كان على علم مسبق بما جرى وحدث . وكان أهل جدتي أنفسهم في الجاعونة قد نزحوا عن بيوتهم ولجأوا الى سوريا منذ صيف ١٩٤٨ فاقترح عليها مانو أن ترسل لهم من يقنعهم بالرجوع الى بيوتهم وهو يضمن حمايتهم وإقامتهم . فهل كانت أقوال مانو فريدمان تلك من باب التعزية ومحاولة تخفيف المصائب ام أنه كان جادا بما اقترح وواعد وهو شيء يخالف الرواية الفلسطينية العامة عن ظروف نشوء مشكلة اللاجئين بمخطط صهيوني لطرد جماعي تم وضعه قبل نشوب الحرب؟ تلك أسئلة هامة لدراسات أخرى يجدر التعمق بها لكنها تخرج عن حدود هذا البحث .

فماذا جرى وحصل لجدتي بعد وقوع مصيبتها ونزوح أهلها في الجاعونة؟ ماذا جرى لأولادها في مجد الكروم وكيف تدبرت أمورها بعد فقدان زوجها أبو معيوف ونسف دارها؟ تلك أسئلة ستحاول بقية صفحات هذه الورقة الإجابة عليها . كان عزاء جدتي أن اولادها وبناتها بغالبيتهم كانوا قد تزوجوا ما عدا أصغرهم من أبو معيوف، أحمد والذي أذكر يوم زفافه وعيش جدتي الى جانب

داره في خشتها في ارض الشيخة. لقد شجعت جدتي جميع اولادها وبناتها على البقاء في القرية وعدم النزوح رغم المخاطر التي رآوها بأعينهم في ٦ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٤٨. أما عمي علي فصار لاجئا في مخيم عين الحلوة حيث عاش بقية حياته في أعقاب النكبة (٣١). وأما والدي فتم طرده من القرية في ٩ كانون ثاني (يناير) ١٩٤٩ وصار مع زوجته وطفله الوحيد لاجئا لمدة عامين ونيف عاد بعدها الى القرية في تموز (يوليو) ١٩٥١ لنعيش قريبا من جدتي وهي حكاية نشرتها مؤخرا (٣٢).

لقد طال جدتي عند انتهاء حرب فلسطين وانقشاع غبارها عن مدى النكبة التي حلت بالفلسطينيين حصة كبيرة تثقل كاهل عظام الرجال. فقد أعدم زوجها الثالث والأخير «أبو معيوف» ونسف الجيش دارها كما مر معنا. وكانت قبل ذلك قد فقدت الاتصال بأهلها وإخوتها من الجاعونة الذين صاروا لاجئين في سوريا منذ ذلك الحين فانقطعت أخبارهم عنها وعننا. ثم كان طرد العديد من أهالي القرية في بداية عام ١٩٤٩ وفيهم بعض اولادها وعائلاتهم. وتحملت جدتي زهرة المصائب التي حلت بها منذ شبابها وترملها أول مرة بعد وفاة زوجها الأول في الجاعونة، ثم وفاة أبو فياض زوجها الثاني وحتى ما جرى لها عام ١٩٤٨ من إعدام زوجها ونسف دارها وهي على أعتاب الخمسين من العمر أو أكثر. هكذا في أعقاب النكبة كان على جدتي أن تبدأ مرحلة جديدة من حياتها من تحت نقطة الصفر كمواطنة في الدولة اليهودية.

لقد تعرفت على جدتي زهرة بعد رجوعنا من لبنان في صيف ١٩٥١ بعد أن توفيت جدتي مريم قبل عودتنا ببضعة أسابيع (٣). أما ذكرياتي الشخصية عن جدتي زهرة في الخمسينيات فقليلة متقطعة ترتبط بزياراتي لها في الأعياد والمناسبات. وأهم ما أذكره عيشها في «خشتها» المجاورة لدار عمي أحمد أصغر أبنائها من زوجها الأخير أبو معيوف. كانت جدتي تعمل «غسالة» عند اليهود في حيفا مع ابنتها المطلقة «سعدة» قبل أن تتزوج ثانية في أواخر الخمسينيات. وكان البعض «ينصحها» بالكف عن هذا العمل في سننها المتقدمة. لكن جدتي أجابت «الناصحين» وفيهم بعض اولادها أنها تفضل أن تأكل وابتها من عرق جبينها على أن تحتاج لمد يدها لأحد. ويبدو أن اولادها شعروا بالحرَج من عمل أمهم لكن «أيديهم كانت قصيرة» على قول المثل. فالأعمال كانت قليلة تلك الأيام من سنوات الحكم العسكري ولكل منهم عائلة وأولاد. أما أنا فكنت من حزب جدتي، على الأقل لأنني كلما زرتها خاصة في الأعياد والمناسبات كانت دائما تقدم لي «العيدية» التي تدخل الفرحة على قلوب الأولاد في الأعياد.

خاتمة

توفت زهرة الجاعونية في ٦ آذار (مارس) ١٩٦٨ وهو تاريخ زال عن نصب قبرها وبقي في سجل أبو جميل. في تلك الأيام التي أعقبت نكسة حزيران كنت على أبواب دراستي في الجامعة ومشغول بالعمل وتوفير بعض المال قبل بدء العام الدراسي. وخلال دراستي في القدس لدرجة الماجستير تعرفت على طالبة جامعية صارت زوجتي وأم أولادي. وقد سافرت أول مرة للتعرف على أهل عزيزتي من القدس الى صفد ومنها الى عكبرة وهي قرية متواضعة جدا الى الجنوب من مستشفى

صفد الحكومي . ولم تكن تلك المناطق مألوفة لدي رغم قربها من الجاعونة التي لم اقم بزيارتها حتى ذلك الحين . وكانت رحلتي تلك لطلب يد عزيزة من أهلها مغامرة لا أنساها جاءت نتيجتها مثل ما أبتغي . تلك المصاهرة فتحت أمامي نافذة جديدة على مجريات النكبة في منطقة صفد تبين خلالها أن أبو حسين، والد زوجتي كان على علاقة مع مانو فريدمان من روش بينا . وكانت عائلة زوجتي من قدينا فأقام « أبو حسين » والد زوجتي علاقات تجارية مع مانو فريدمان فترة الانتداب البريطاني ثم بعد قيام دولة اسرائيل أيضا حسبما سمعت منه .

لقد سمعت من والد زوجتي باقتضاب حكاية نزوحهم عن قريتهم قدينا في اواخر عام ١٩٤٨ ثم قدومهم الى الجاعونة حيث عاشوا هناك لعدة أشهر قبل نقلهم الى عكبرة، وهي قرية جنوب صفد نزح معظم أهلها عنها وصاروا لاجئين (٣٤) . كان « أبو حسين » محدثا لبقا لكنه كان مقل حين يدور الحديث عما جرى لأهل قدينا عام ١٩٤٨ . وعندما قرأت في سجل ابو جميل بدقة وجدت فقرة تذكر أن « عائلة حليحل من أهالي قديثة سابقا ارتجعوا من لبنان بواسطة مانو فريدمان من الجاعونة ثم سكنوا في قرية عكبرة » .

ولما عدت مجددا للتحقق من مدى صحة ودقة ما حرره أبو جميل في سجله تبين أن المعلومات الواردة فيه دقيقة للغاية . فمانو فريدمان كان قد أرسل لأهالي قدينا، وخاصة أصدقائه وفيهم « أبو حسين » فأمّنهم وأعادهم الى البلاد وأسكنهم أولا بالجاعونة . ثم انتقلوا بعد عيشهم بالجاعونة لعدة أشهر الى قرية عكبرة حيث ولدت زوجتي وحيث التقيت والديها . هكذا وجدت نفسي في زمان آخر أعود الى نقطة البداية في حكاية جدتي فأغلق بذلك دائرة فتحها جدي أبو فياض قبل حوالي قرن كامل من الزمان . لقد تغيرت أحوال منطقة صفد عامة والجاعونة خاصة منذ عام ١٩٤٨ فلم يبقى من قرى صفد وسكانها العرب الا القليل القليل (٣٥) . لكن ذلك، أو لنقل ذلك بالذات هو ما أشعل حماسا معيننا وذكريات الماضي عند (اختياري لزوجتي من أهل تلك المنطقة . وقد عبرت عمتي سعدة التي رافقت جدتي مدة طويلة عن سعادتها بهذا النسب قائلة « أنا أحب رائحة تلك البلاد وأهلها الذين يذكرونني بأهل الجاعونة » .

وأخيرا فإن والدة زوجتي « أم حسين » ظلت حتى وفاتها تذكركنا بملاحم وجهها وزرقة عيونها بجذتي زهرة . كانت أم حسين ابنة وحيدة لأهلها من قرية الصفصاف غير البعيدة عن قدينا و صفد والجاعونة . وقد سمعت منها كيف أنها أسمت ابنتها الأخيرة عزيزة على اسم ابنة عمتها التي أحببتها كثيرا والتي « قتلها اليهود عام ١٩٤٨ » مع عشرات من أهل الصفصاف بعد (٣٦) . وعندما كنت (احتلالها في نفس عملية حيرام بتاريخ ٢٩ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٤٨ أحاول سماع المزيد عن ظروف تلك المذبحة كانت دمعة « أم حسين » تسبق كلامها فأتوقف عن محاولة إثارة تلك الذكريات المريرة، خاصة وأن كل أهلها صاروا لاجئين في لبنان مثل العديد من أهالي الجليل . وحكاية « أم حسين » مثل حكاية جدتي تستحق التسجيل والدراسة لأنها تكشف تاريخا فلسطينيا غير موثق ولا مسجل في كتب التاريخ وأرشيفات المؤسسات والدول . فهل يجد المؤرخون والباحثون متسعا من وقتهم للاهتمام بحكايات أجدادنا وجداتنا كي نضيف الى تاريخ فلسطين جوانب هامة ومغفلة من حياة الناس العادية . تلك الحكايات إذا ما تم التحقق من رواياتها الشفوية واتكأت على منهجية بحثية أكاديمية ووثائق ودراسات مكتوبة مرشحة لأن تقدم تاريخا اجتماعيا مختلفا يندر وجوده حتى الآن في المكتبة العربية .

١. لم يكتب كثيرا عن تاريخ الزواج في ريف فلسطين في العهد العثماني لأن عقود الزواج كانت تجري في القرية بدون تسجيلها في سجلات المحاكم الشرعية التي تشكل مصدرا وفيرا للمعلومات بهذا الشأن وشؤون اجتماعية كثيرة أخرى. ومن تجربتي الشخصية في دراساتي عن القدس من خلال قراءة وثائق المحكمة الشرعية استطعت مثلا تدقيق تواريخ زواج العديد من علماء القدس وأعيانها والذين ترجمت لهم في كتابي أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠ - ١٩١٨) بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤، ثم دراستي الحديثة لتاريخ القدس في أوائل القرن التاسع عشر (١٧٩٨ - ١٨٣١) بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٧.
٢. أما ظروف وفاة زوج جدتي الأول خلال الحرب العالمية الأولى فيلفها الغموض. وقد علمت من عمتي سعدة أنه كان كبير السن وتوفي في أوائل الحرب التي انتشرت فيها الأوبئة والأمراض التي حصدت الرجال والأطفال.
٣. روش بينا الى الشمال الشرقي من مدينة صفد هي من المستوطنات الصهيونية الأولى التي أقيمت في فلسطين عام ١٨٧٨ ثم مجددا عام ١٨٨٢ بعد فشل المحاولة الأولى. قامت المستوطنة على أراض اشترها أغنياء يهود صفد من أراضي الجاعونة فتعايش أهالي الجاعونة-روش بينا مدة طويلة بسلام نسبي حتى عام ١٩٤٨.
٤. وتاريخ وفاة جدي سليم الحاج كريم غير معروف على وجه الدقة لكنه يرتبط بولادة ابنه الأخير حسين، والدي، عام ١٩٢٤. فالرواية الشفوية تشير الى أنه توفي بعد أن رزق بطفله بعام أو عامين.
٥. رواية ما جرى «لأبو معيوف» وداره سمعتها منذ الطفولة وتحقق منها لاحقا وخاصة تاريخ حدوثها في دراساتي اللاحقة من خلال وثائق الجيش الإسرائيلي ومقابلة مع محمد حيدر «أبو جميل» الذي اكتشفت أنه يحتفظ بسجل هام لم يكتب به شيئا عن تفاصيل المذبحة في مجد الكروم ذلك اليوم، خوفا من انتقام السلطات الإسرائيلية، أيام الحكم العسكري كما يبدو.
٦. تحتفظ عمتي سعدة بذاكرة جيدة وشخصية منفتحة ساعدتني في الحصول على الكثير من المعلومات الدقيقة والحساسة اجتماعيا وسياسيا. لذا كنت أعود عليها في السنوات الأخيرة لأحاول التحقق من بعض معلوماتي أو الإجابة على ما يجد من أسئلة. والمهم أن عمتي سعدة كانت تقول لا أعرف أو لا أذكر أكثر من مرة بدلا من التكهينات والأقوال غير الدقيقة التي يدلي بها بعض الرواة.
٧. إضافة الى المعلومات الدقيقة والهامة عن الأشخاص والعائلات ومؤسسات القرية (العين، الجامع، المدرسة) هناك معلومات عن أحداث عامة وتداعياتها في القرية تشكل مادة خام لكتابة تاريخ القرية منذ أوائل عهد الانتداب. وقد وجدت مثلا في هذا السجل توثيقا لأحداث أذكرها من طفولتي وكذلك أسماء المعلمين والمعلمات في مدرستي منذ أواسط الخمسينيات.
٨. عانى أهالي فلسطين والبلاد العربية المجاورة من التجنيد للخدمة العسكرية وأعمال السخرة وفرضت أحكام الطوارئ وتم مصادرة المؤون والمواشي وقطع الأشجار للمجهود الحربي. وقد تعطلت التجارة وشحت المواد الغذائية ثم جاء الجراد وانتشرت الأوبئة والمجاعة بين الناس. للمزيد:
- L. Schatkowski Schilcher «The famine of 1915-1918 in Greater Syria» In J.P. Spagnolo (ed.) Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective (Reading: Ithaca press, 1992) pp. 229-258.
٩. تناقل أهالي القرية حكايات متعددة عن كرم «أبو فياض» وإن اسمه كان يليق به بما في ذلك أنه كان أبو الفقراء. هذه المزايما كانت معروفة كما يبدو لأهل جدتي بشكل عام وأظهرها بشكل خاص في المناسبات مثل تلك الزيارة التي أتى بها لرد الجميل.
١٠. كانت نسبة وفيات الأطفال عالية جدا في تلك الأيام من أواخر العهد العثماني. وكان أبو فياض قد تزوج قبل جدتي مرتين. أنجبت له جليمة ثلاثة أطفال عاش منهم فياض وتوفيت البنتان في طفولتهما. أما الزوجة الثانية فلم

- تجنب أطفالا وتوفيت وهي صغيرة السن حسب الروايات الشفوية.
١١. بدأ أبو جميل تسجيل تاريخ وفيات أهل القرية منذ أواخر العشرينيات فلم يسعفني في معرفة وفاة جدي على وجه الدقة. أما زوجته الأولى جلييلة فتوفت حسب هذا السجل بتاريخ ٣٠ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٣١ حيث كتب أبو جميل « وفاة جلييلة حرم المرحوم سليم الحاج كريم ».
١٢. رواسب هذه الثقافة البطيركية المذكورية ما زالت تعيش في كثير من المناطق الريفية في فلسطين وغيرها من البلدان العربية وقد أشار إليها العديد من علماء الاجتماع وغيرهم من الباحثين في شؤون مكانة المرأة العربية في المجتمعات التقليدية.
١٣. راجع في ذلك مثلا كتاب شكري عراف، القرية العربية الفلسطينية. طبعة. ثالثة، معليا، ١٩٩٦.
١٤. وثق أبو جميل في سجله بدقة واختصار هذا الحادث كاتباً في (صفحة ٤، رقم ٨٢) «مسك حسين خليل قدام في بيت سليم الحاج من قبل بوليس الكمب عبد عثمان ويوسف الرئيس الغزاوي في ١٣ / ٩ / ١٩٢٩».
١٥. نفس المصدر (ص ٥، رقم ٩٤). وقد صدر الحكم ضد «حسين خليل بدعوى الجاعونية في ١٤ نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٢٩ أي بعد شهرين من إلقاء القبض عليه.
١٦. نفس المصدر (ص ٧، رقم ١٥٣).
١٧. نفس المصدر. وقد سجل أبو جميل أسماء من تبين أنهم قتلوا خليل قدام بتواضع وعلى هامش خبر قتله ودفنه. وكان بين من شاع عنهم الاشتراك في القتل أحمد فياض، أي حفيد سليم الحاج كريم من ابنه فياض.
١٨. أذكر في طفولتي نشوب بعض الطوشات التي شارك بها أقاربي خلال الخمسينات وحتى الستينيات، أي حتى بعد النكبة بسنوات كثيرة. وقد استغل الحكم العسكري الإسرائيلي أيضا تلك الانقسامات وغذوها ضمن سياسة «فرق تسد» وجعل رؤساء العائلات يتنافسون أحيانا في إقامة العلاقات مع الشرطة والمؤسسات الاسرائيلية».
١٩. كان الشيخ نبهان صوفيا رفاعيا يعتقد الناس بكراماته وأبو جميل على علاقات «عمل حسابات» مواشيه وأراضيه. وقد ورث مكانته بعد وفاته ابنه الشيخ محمود نبهان ولي
- بعض الذكريات والمجادلات مع أمي التي كانت تعتقد بكرامات الشيخ محمود سوف أذكرها في سيرتي الذاتية التي أخطط لكتابتها قريبا إن شاء الله.
٢٠. يتناقل كبار السن روايات شفوية تؤكد بناء جامع القرية والعديد من البيوت حوله ومنها دارنا التي نشأت فيها أيام ظاهر العمر. وقد وجدت لاحقا ما يؤكد العلاقات الجيدة بين ظاهر العمر وأولاده مع أهالي مجد الكروم. فلما قام أحمد باشا الجزائر بملاحقة الزيدانة في قرى الجليل فإن أهل مجد الكروم ناصروا علي ابن ظاهر العمر فانقم منهم الجزائر بقتل الكثيرين منهم وأرسل رؤوسهم المقطوعة الى استانبول إثباتا لفوزه في المعركة التي جرت في سهل مجد الكروم. للمزيد يمكن. مراجعة كتابي «تاريخ فلسطين في اواخر العهد العثماني ١٧٠٠ - ١٩١٨. (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩) ص ٨٠ - ٨١.
٢١. تقع مجد الكروم وأراضيها في الجهة الغربية لسهل الشاغور فتسيل مياه الوديان من الجبال المجاورة الى أراضيها وتسير غربا حيث تستقر في «وادي القرار» المذكور في سجل أبو جميل.
٢٢. وكنت قد ترجمت لعبد الفتاح السعدي في كتابي اعلام فلسطين المذكور سابقا (ملاحظة رقم ١) ص ٢٠١ دون ذكر تاريخ وفاته بدقة حينذاك فجاء سجل أبو جميل ليزودني مؤخرا بمثل تلك المعلومة التي لم أجد لها في مصادر تاريخية أخرى.
٢٣. تشير تسجيلات أبو جميل في دفتره الى أنه كان يطالع الصحف وينقل بعض الأخبار الهامة عنها خلال الثورة والسنوات التي سبقتها مثل ذكره مثلا «ترحيل عرب الحوارث في ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٣٠ إشارة الى قضية أراضي وادي الحوارث التي اشتراها اليهود من آل تيان في يافا ورفض عرب المنطقة مدة طويلة ترك المنطقة التي عاشوا فيها حتى صدور قرار المحكمة وترحيلهم.
٢٤. زواج البدل كان شائعا في ريف فلسطين وغيرها من البلاد العربية. ويقوم هذا الزواج عادة على أساس زواج كل واحد من العريسين بأخت الآخر دون حاجة لدفع المهر الشرعي للزوجة.

- ٢٥ . عمانوئيل (مانو) فريدمان هو شخصية فريدة مركبة حسبما سمعت وقرأت عنه في مصادر مختلفة. لقد أقام علاقات متشعبة مع أهالي قرى الجليل إضافة الى جيرانه في الجاعونة كما سيجيء ذكر بعض تلك العلاقات فيما يلي. وبشكل عام فإن علاقات أهل الجاعونة العرب مع المستوطنين اليهود الذين أقاموا روش بينا عام ١٨٨٣ كانت جيدة. وكان غالبية هؤلاء اليهود مهاجرين جدد جاؤوا الى فلسطين من رومانيا وحظوا بدعم البارون روتشيلد.
- ٢٦ . سجل أبو جميل في نفس ذلك التاريخ أيضا زواج محمد علي سعيد قداح الذي ظل صديقا لوالدي مدة طويلة كما أذكر وكذلك سليم فياض ابن سليم الحاج كريم. كما أضاف أبو جميل في سجله «وكانوا معزومين في محل جميل محمد حيدر» أي ابنه البكر «وعمل غداء للجميع». ولما ذكرت لأمي قبل ثلاثة أعوام تاريخ زواجها مع آخرين في نفس ذلك اليوم وأنهم كانوا معزومين في دار جميل محمد حيدر استغربت من معرفتي هذه المعلومات وأضافت لي بعض المعلومات عن يوم الزفاف لم نتحدث عنها سابقا.
- ٢٧ . لم يدفن سميح في مقبرة القرية القريبة من دار أبو معيوف وإنما في ارض الشبيخة قريبا من دارهم. وقد شاهدت ذلك القبر اليتيم قريبا من خشة جدتي التي أقامتها بعد هدم دار أبو معيوف في نفس عام ١٩٤٨.
- ٢٨ . للمزيد عن أحداث النكبة في مجد الكروم يمكن مراجعة مقالتي «الذاكرة وتاريخ أحداث النكبة: مجد الكروم نموذجا» في كتاب نحو صياغة رواية تاريخية للنكبة: إشكاليات وتحديات، الذي حرره د. مصطفى كبها (حيفا: مدى الكرمل، ٢٠٠٦) ص ١٧٣-٢٠٧.
- ٢٩ . وكان حليم أورباخ الذي عمل في أحد معسكرات الجيش البريطاني أيام الحرب العالمية الثانية على علاقات طيبة مع عمال فلسطينيين عملوا في نفس المعسكر وفيهم بعض أهالي مجد الكروم كما روى لي أبو السعيد الذي كان فخورا بصداقته مع أورباخ حتى آخر أيامه. وقد تفاجأ أبو السعيد حين ذكرت له أن أورباخ هذا كان يعمل في وحدة المخابرات لمنظمة الهاغاناه وأن صداقاته مع العرب كانت
- على الأغلب في سبيل جمع المعلومات عن قراهم. لكن أبو السعيد لم يغير من موقفه الإيجابي من صديقه أورباخ وظل يفاخر بأن هذا قام بدور هام في عقد اتفاقية التسليم ثم قام بدور هام في وقف المذبحة بالقريّة على ساحة العين في ٦ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٤٨.
- ٣٠ . وتفصيل تلك المذبحة وما جرى ذلك النهار في مجد الكروم مذكورة في مقالتي المذكورة أعلاه عن «الذاكرة وتاريخ أحداث النكبة» (هامش رقم ٢٨).
- ٣١ . توفي عمي علي مؤخرا في مخيم عين الحلوة بالقرب من صيدا في جنوب لبنان بتاريخ الأول من تموز (يوليو) ٢٠٠٦. وما زال أولاده وأحفاده يعيشون في المخيم ومدينة صيدا حتى يومنا هذا.
- ٣٢ . مقالتي «الذاكرة وتاريخ أحداث النكبة: مجد الكروم نموذجا» المذكورة أعلاه.
- ٣٣ . ومرة أخرى أسعفني سجل أبو جميل في تدقيق الرواية الشفوية حيث كتب عن وفاة «مريم أمين أحمد السعيد بدهس سيارة بنفس البلد ودفنت في ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٥١». وكانت عودتنا من لبنان بحرا الى شمال عكا بعد وفاة جدتي مريم (أم أمي) وقبل ولادة أخي محمد الذي كانت أمي حاملا به عند عودتنا من مخيم اللاجئيين في لبنان حسب رواية والدي، وخاصة أمي التي عدت وتأكدت ثانية مما سمعته منها مرات سابقا.
- ٣٤ . Walid Khalidi, All That Remains: The Palestinian Villages. Occupied and Depopulated by Israel in 1948 (Washington: Institute for Palestine Studies, 1992). pp. 485-486.
- هذا المصدر الهام الذي يعتمد كثيرا على بني موريس ودراساته لا يشمل إلا جزءا صغيرا من حكاية قدينا وأهلها كما سمعتها وكما تورد هذه الورقة بعض تفاصيلها.
- ٣٥ . نفس المصدر، ص ٤٢٧ - ٥١٠. وللمزيد عن هذا الموضوع يمكن أيضا مراجعة: مصطفى عباسي، قري قضاء صفد في عهد الانتداب. حقوق الطبع محفوظة. للمؤلف، ١٩٩٦.
- ٣٦ . الخالدي، ص ٤٩٠ - ٤٩١.